التأثيرات الاستعمارية على الدراسات الأنثربولوجية الأولى في إفريقيا

من يدرس من؟ ولماذا؟

د. سحر محمد إبراهيم غراب

مدرس الأنثروبولوجيا - كلية الدراسات الإفريقية العليا – جامعة القاهرة

علم الأنثروبولوجيا هو نظام مترابط يُركّز اهتمامه على كائن واحد، هو الإنسان، حيث يحاول فهم أنواع الظواهر المختلفة التي تُؤثِّر فيه، فهدف علم الأنثروبولوجيا هو فهم حالة الإنسان، من خلال معرفة ما حدث في الماضي، وما يحدث الآن، وماذا سيحدث لاحقاً.

ويُعتبر اهتمام الأنثروبولوجيا بدراسة كل المجتمعات الإنسانية منطلقاً أساسياً من فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها، إلا أنه لاعتباراتٍ نظرية ومنهجية من جهة، وسياسية من جهةٍ أخرى، ركز الأنثروبولوجيون في البداية على دراسة المجتمعات غير الأوروبية التي تتصف بصغر الحجم، والتي أطلقوا عليها المجتمعات البدائية Primitive Societies. وعلى الرغم من توسع مجال الأنثروبولوجيا، خاصةً بعد الحرب العالمية الثانية، فإن الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا من ناحية الوصف الإثنوجرافي للثقافات، ولأسلوب حياة المجتمعات البسيطة، لا يزال يحتل اهتمام علم الأنثروبولوجيا حتى الآن.

بدأ علم الأنثروبولوجيا كعلم استعماري، فهو نتاج الاستعمار الذي ركز بشكلٍ فريد على دراسة اللغات والتاريخ والثقافة والبيولوجيا للشعوب غير الأوروبية، التي يُنظر إليها على أنها «بُدائية» أو «قديمة» في جميع أنحاء العالم. كانت الأنثروبولوجيا، حتى وقتٍ قريب، في المقام الأول هي دراسة «الآخر» الغريب، واتُّهمت الأنثروبولوجيا بتقديم النماذج النظرية للهيمنة الاستعمارية والتمييز العنصري.

ومن هذا المنطلق تتمحور تساؤلات الدراسة في الآتي: ما مدى ارتباط علم الأنثروبولوجيا منذ بداية نشأته وتطوره بتعزيز واستمرار الاستعمار، وخاصةً في إفريقيا؟ وهل استطاع علماء الأنثروبولوجيا القيام بدراسات ميدانية بعيدة عن التوجهات الاستعمارية؟ وهل تخلصت الأنثروبولوجيا في الجامعات من النزعة الاستعمارية؟

برر المستعمرون الأوروبيون المشروع الاستعماري من خلال الأنثروبولوجيا المقارنة بين أسلوب حياة الدول المتقدمة والدول المستعمَرة

وتسعى الدراسة لمحاولة الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال المحاور التالية: مدخل مفاهيمي لعلم الأنثروبولوجيا والاستعمار، ثم نتناول علاقة الأنثروبولوجيا بالاستعمار، أما المحور الثالث فسوف نتناول فيه علم الأنثروبولوجيا ودراسة القارة الإفريقية، وبعد ذلك نقدّم عرضاً لبعض الأمثلة عن تأثير علم الأنثروبولوجيا في استعمار إفريقيا، ونختم بالحديث عن دراسات علم الأنثروبولوجيا في الجامعات، وهل تخلصت بالفعل من رواسب الدراسات الاستعمارية.

أولاً: مدخل مفاهيمي (علم الأنثروبولوجيا – الاستعمار):

- علم الأنثروبولوجيا:

هو علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة، علم يدرس الإنسان ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان. وفي الوقت ذاته؛ يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي في المجتمعات بوجهٍ عام، فهو علم يبحث عما هو حقيقي، وليس

عما هو بارز سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً. وهـذا النوع من العلوم يساعد الحكومات على تشكيل السياسة والرأي العام الشعبي من أجل تعزيز التغيير الاجتماعي والثقافي، ومن أجل تحقيق الاستقرار والتماسك الاجتماعي أيضاً.

بناءً على مفهوم الأنثروبولوجيا وطبيعتها الميدانية؛ فإن دراستها تحقق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور الآتية:

١- وصف مظاهر الحياة البشرية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث الجماعة المدروسة، وتسجيل كلّ ما يقوم به أفرادها من سلوكيات في تعاملهم، وفي الحياة اليومية بشكلٍ عام.

٢- تصنيف مظاهر الحياة البشرية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة.

٣- تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغير، وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة.

٤- استنتاج المؤشّرات والتوقعات لاتّجاه التغيير المحتمل التي تمّت دراستها، وبالتالي إمكانية التنبؤ بمستقبل الإنسان داخل المجتمعات[١].

- الاستعمار:

يُقصد بالاستعمار «شكل محدد من أشكال الإمبريالية، يتم من خلالها قيام دولة قوية بضم أقاليم ودول أخرى إليها، ويتم فرض السلطة الاستعمارية محل السلطة المحلية- ويُطلق عليها (الحكم المباشر)، أو يتم إدماج الأقاليم والدول ضمن بناء القوة الاستعمارية - ويُطلق عليها (الحكم غير المباشر). وأرجع العلماء أسباب الاستعمار إلى عوامل سياسية واقتصادية مختلفة ومتغيرة؛ طبقاً لتغير وتطور المجتمعات وتغير احتياجاتها»[٢].

أما في القرن العشرين تحديداً؛ فقد استخدمت كلمة «الاستعمار» لتعني «الغزو عنوة واحتلال المجتمعات وإدارة ثقافة الشعوب غير الغربية بواسطة القوى الأوروبية والأمريكية»[٣].

والجدير بالذكر هنا: أن كلا التعريفين السابق ذكرهما يمكن تطبيقه على الشكل الذي اتخذه الاستعمار في إفريقيا، فعلى سبيل المثال وليس الحصر: قامت الحكومة الإنجليزية بتوسيع دائرة الدول التي كانت تحت إدارتها باتباع أسلوب (الحكم غير المباشر)؛ حتى تستطيع إيجاد أسواق اقتصادية تناسب مرحلة الثورة الصناعية والتطور المستمر في نظامهم الاقتصادي.

وكذلك، وفي نفس القارة الإفريقية، نجد النوع الآخر من الاستعمار وهو (الحكم المباشر)، والذي ظهر بشكل واضح في الاستعمار الفرنسي الذي حاول بكل

(١) العلي، عباس كاظم أحمد. (٢٠١٢)، قراءة في نشأة وتطور الأنثروبولوجيا العامة. مجلة دراسات تاريخية، ص١٦.

(٢) سميث، شارلوت سيمور (١٩٩٨)، موسوعة علم الإنسان: المفاهيم والمصطلحات: الأنثروبولوجيا، ترجمة مجموعة من الباحثين، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ص٩٠.

(٣) إدجار، أندرو & سيدجويك، بيتر (٢٠٠٩)، موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهري، ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ص٥٩.

الطرق أن يمحـــو الثقافة والهوية الإفريقية في المجتمعات التي كانت تحت ســـيطرته؛ بهدف إدارة هذه الشـــعوب وإدماجها تحت مظلـــة الحكم الفرنســـي، وعندما فشـــل الاســـتعمار الفرنســـي في هـــذا النوع من الاستعمار والسيطرة قام بتطبيق نوع جديد أطلـــق عليه «الاســـتعمار الجديد»، ويقصد به الســـيطرة من بُعد، بمعنى أن تكون هذه المجتمعات والأقاليم تابعة للدولة الفرنسية وتحت الحكم الفرنسي، مثل بعض دول غرب إفريقيا وبعض الجزر الإفريقية.

ثانياً: علاقة الأنثروبولوجيا بالاستعمار:

تم وصف التطور التاريخي للأنثروبولوجيا على أنه نتيجة لعملية تاريخية جعلت الجزء الأكبر من البشـــرية خاضعاً للآخر، ونهبت الملايين من البشـــر الأبريـــاء ومواردهم، ودمـــرت مؤسســـاتهم ومعتقداتهم، وقتلتهم بـــلا رحمة، وألقت بهم في العبودية، فتلوثوا بأمراض لم يتمكنوا من مقاومتها. وأنتج هذا «العنف» نظاماً اجتماعياً كان له تأثيرٌ واسع النطاق على العلاقة بين عالِم الأنثروبولوجيا والأشخاص الذين درســـهم، سواء أدى دور المراقـــب المنفصل (عالِـــم الأنثروبولوجيا النظريـــة)، أو دور القائـــم بالاتصال (عالِم الأنثروبولوجيـــا التطبيقية) بين المجموعة الأوروبيـــة المهيمنـــة والمجموعـــات غير البيضاء الخاضعة، فقد تأثرت الأدوار بشكلٍ كبير من خـــلال عضويته فـــي المجموعة المهيمِنة[1].

ونظـــراً لأن عالِـــم الأنثروبولوجيا عمل في وسط التغيرات الاقتصادية والسياسية العميقة، التـــي رافقت المواجهة بين الغرب وبقية العالم، فقد تمت دعوته كثيراً لتقديم المعلومات والمشـــورة للغـــرب في جهوده للتلاعـــب بالعالم غير الغربي والســـيطرة عليه، وقدّم المعلومات بشكل مباشر أو غير مباشـــر، وأصبح بالتالي متورطاً في عملية الاستعمار.

ويعـــود تعييـــن علمـــاء الأنثروبولوجيا والنشـــطاء الاجتماعيين كخبراء إلى القرن التاسع عشر، وتشير الأبحاث الحالية إلى أن الخبـــرة الثقافية، مع أو بدون تعيين خبراء، تُستخدم بشـــكل روتيني في أوروبا وأمريكا وأستراليا، وتشـــمل الموضوعات التي تُركِّز عليها الخبرة الثقافية: صحة الممارســـات العرفيـــة؛ طرائق الاضطهاد على أســـاس العرق والجنس والعقيدة؛ مخاطر العودة إلى البلد الأصلي لطالـــب اللجوء؛ نوع الحماية التي يمكن للأفـــراد المضطهدين أن يأملوا في الحصـــول عليها من الدولة ضد الأفراد والمنظمات غير الحكومية؛ فعالية الخدمات الصحية العامة والخاصة؛ تنفيذ التشريعات لحماية الفئات الضعيفة؛ العادات والتقاليد فـــي قانون الأســـرة وريـــادة الأعمال عبر الوطنيـــة؛ الإرهـــاب والتطـــرف؛ الترجمة العادلة؛ تنفيذ المعاهدات مع الأمم الأولى.

وتلعب الخبـــرة الثقافية دوراً ليس فقط

(١) Lewis, Diane (1973) Anthropology and Colonialism, The University of Chicago Press and Wenner- Gren Foundation for Anthropological Research, Current Anthropology, Vol. 14, No. 5, pp. 581- 602. http://www.jstor.org/stable/2741037.

في الأشـــكال الجديدة لـ«التنـــوع الثقافي»، ولكن أيضاً فيما يُسمى «التنوع العرقي»، بما في ذلك الأمم الأولى والأقليات اللغوية التي تتمتع بحقوق شبه مستقلة تقرها المعاهدات والدساتير[١].

ويُعبّر الأنثروبولوجـــي الإنكليزي إيفانز بريتشـــارد (١٩٠٢-١٩٧٣م) عـــن العلاقة الارتباطية بين الاســـتعمار والأنثروبولوجيا بقوله: «إذا كانت السياســـة الاســـتعمارية لحكومـــةٍ ما تقـــوم على حكم شـــعب من الشعوب بواســـطة رؤســـائه؛ فمن المفيد أن يعـــرف من هم هؤلاء الرؤســـاء، ما هي وظيفتهم، وسلطتهم وامتيازاتهم، وواجباتهم، فإذا ســـلّمنا بأن حكم شـــعب ينبغي أن يتم وفقاً لشـــرائعه الخاصة وعاداته الخاصة؛ فيجب أولاً أن نكتشـــف هذه الشرائع وهذه العادات»[٢].

وقد ساهمت الأنثروبولوجيا في الفجوة بين الثقافة الغربية وغير الغربية من خلال توفير المعلومات التـــي تدعم البنى العقلية التي طورهـــا مَن هم في الســـلطة. علماء الأنثروبولوجيـــا كان لهم دورٌ كبير في ذلك، فهُم الذين ينظرون إلـــى ثقافة من الخارج، ويســـجلون الاختلافـــات بين تلـــك الثقافة والحضارة الغربية. إن ملاحظة الاختلافات بين مجموعتين ليس عنصرياً في حدّ ذاته، ولكن عالِم الأنثروبولوجيا الذي يُجري العمل الميداني فـــي بيئةٍ اســـتعمارية عمل على توثيق الاختلافات التي تعمل على دعم القهر المستمر للمجموعة التي يدرسها.

كما تم تشـــجيع علمـــاء الأنثروبولوجيا على اســـتغلال هذه الاختلافات لمصلحتهم الشـــخصية والمهنية، ويتجلى هذا بشـــكلٍ واضح في موقف معظم علماء الأنثروبولوجيا بأن لديهم الحق في اســـتغلال الأشـــخاص الذين يدرســـونهم من أجل تقدّمهم المهني، ودون أن يكون لديهم شـــعور مقابل بالالتزام تجاههم أو تجـــاه احتياجاتهـــم، ونادراً ما يشعرون بالالتزام «بفعل شيءٍ ما لهم»، وفي الواقـــع يبررون ذلك من خـــلال اللجوء إلى قانون ما يُطلق عليه «الهدف العلمي»[٣].

ووجهة نظر الأنثروبولوجية للاســـتعمار هي اتباع إســـتراتيجية قائمة على المعرفة الأنثروبولوجيـــة والتخطيط لتحقيق التقدم التطـــوري المرغوب بثمن بخس ودون إراقة دمـــاء. وانضـــم علمـــاء الأنثروبولوجيا في هذه المدرسة إلى الســـلطات الاستعمارية البريطانيـــة (خاصةً في فتـــرة الحكم غير المباشر، أو النظام السياسي الذي تحكم فيه القوة الاســـتعمارية السكان المحليين بشكلٍ غير مباشر؛ ليس من خلال الإداريين، ولكن من خلال هيـــاكل الحكم المحلية الموجودة مســـبقاً)؛ ومن الأمثلة على ذلك عندما أخذ إيفانـــز بريتشـــارد الأموال من الســـلطات الاســـتعمارية «لإبلاغهـــم بالصـــراع داخل

(١) Livia Holden. Anthropologists as Experts: Cultural Expertise, Colonialism, and Positionality. Law & Social Inquiry, 2021, pp.1-22.

(٢) العربي، بوحسون، «التاريخ والأنثروبولوجيا أي علاقة، دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية»، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد الثاني، ٢٠١٠، ص١٦٧.

(٣) Lewis, Diane (1973) Anthropology and Colonialism, op. cit.p.584.

مجموعة لم تستسلم للحكم البريطاني»، وعندما قدّم تلك المعلومات ساعدت في تنفيذ السياسات الاستعمارية[١].

وبرر المستعمرون الأوروبيون المشروع الاستعماري من خلال الأنثروبولوجيا المقارنة بين أسلوب حياة الدول المتقدمة والدول المستعمَرة. كما قدّمت «النظرية التاريخية للعالَم» نموذجاً لـ«شرح» مسار ذلك التاريخ، بوصفه بأنه سلسلة من الخطوات من الأكثر بدائية («الصيادون» في مصطلحاتنا الحالية) إلى الأكثر تقدماً وحضارة (وهم الأوروبيون والأمريكان المستعمِرون). كما قال مورجان: «تميل التحقيقات الأخيرة المتعلقة بالحالة المبكرة للجنس البشري إلى استنتاج مفاده: أن البشرية بدأت مسيرتها المهنية في أسفل السُّلّم، وشقّت طريقها من الوحشية إلى الحضارة من خلال التراكمات البطيئة بالمعرفة التجريبية»[٢]. وبهذا؛ بدَا الاستعمار الأوروبي مبرَّراً على أُسس علمية أنثربولوجية. وباختصار: كانت نظرية «التطور الثقافي» «والأنثربولوجيا الاجتماعية» ونظرية «الوظيفية»، وغيرها، نظريات خادمة للاستعمار.

ومما لا شك فيه؛ أن عدداً كبيراً من علماء الأنثروبولوجيا شعروا أن فهمهم للسكان الأصليين جعلهم في وضع يسمح لهم بالمساومة نيابةً عنهم، وهذا ما حدث بالفعل، فالعالِم مالينوفسكي، على سبيل المثال وليس الحصر، في كتابه لعام ١٩٢٢م Argonauts of the Western Pacific، يصف علم الإثنوغرافيا (من فروع الأنثروبولوجيا) في العمل الميداني بأنه: وسيط بين «السكان الأصليين» للأراضي البعيدة و«نحن الأوروبيين».

يقول «ليفي بريل»- أحد أهم علماء الأنثروبولوجيا التطوريين: إن العقلية البدائية (يقصد بها عقلية الشعوب الإفريقية وشعوب أمريكا اللاتينية) لا تتقدم ولا تكتسب القوى المنطقية إلا عن طريق احتكاكها بالإنسان الغربي الأبيض بالكشوف أو التبشير أو الاستعمار!

تتضح إذن بمزيدٍ من الجلاء تلك النزعة العنصرية والاستعلاء الغربي، أو بمصطلحات فلسفة العلم: «التشويه الأيديولوجي» للعلوم الأنثروبولوجية، ومدى طغيانه على الروح العلمية الحديثة[٣].

هناك ثلاث قواعد تم استخدامها من قبل الأنثروبولوجيين متعلقة بالعنصرية الاستعمارية:

أولاً: الفجوة بين ثقافة المستعمِر والمستعمَر.

ثانياً: استغلال هذه الاختلافات لصالح المستعمِر.

ثالثاً: استخدام هذه الاختلافات المفترضة كمعايير للحقيقة المطلقة.

وقد أشار ممّي Memmi (ألبير ممّي،

(١) Asch, Michael. (2015). Anthropology, colonialism and the Reflexive Turn: Finding a place to stand. 57. pp.481-489. https://www.researchgate.net/publication/299408318.

(٢) Ibid. p.485.

(٣) الخولي، يمنى طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص ٢٩-٣٠.

باحث في علم الاجتماع، ت.٢٠٢٠م) إلى أنه بمجرد تحديد الاختلافات بين المجموعات المهيمِنة والمهيمَنة، واستغلال الاختلافات لصالح المجموعة المسيطرة، يتم تصنيفها بعد ذلك على أنها «معايير الحقيقة المطلقة» أو أنها حاسمة. وهنا نجد أن الأنثروبوليولوجيا متورطة بشكلٍ متساوٍ في هذا الأساس الأيديولوجي الثالث للعنصرية الاستعمارية[١].

ثالثاً: علم الأنثروبولوجيا ودراسة القارة الإفريقية:

لعب مستعمرون مختلفون، مثل البريطانيين والبرتغاليين والفرنسيين، دوراً مهماً في إنشاء فروع مختلفة للأنثروبولوجيا لدراسة الشعوب والمجتمعات المختلفة في إفريقيا خلال الفترة الاستعمارية، ففي ١٥ نوفمبر ١٨٨٤م عُقد مؤتمر برلين بين القوى الأوروبية والولايات المتحدة لتقسيم الدول الإفريقية بطريقة مدنية وعادلة للمستعمرين، وعلى الرغم من أن الهدف الرئيسي للاجتماع كان تقسيم إفريقيا؛ فإنه لم تتم دعوة إفريقيا، ولم تشارك في تقسيم أراضيها الأصلية. وباستخدام خريطة إفريقيا؛ تمكنوا من تقسيم القارة فيما بينهم، وانتهى الاجتماع في ٢٦ فبراير ١٨٨٥م باستحواذ بريطانيا وفرنسا على غالبية الأراضي، بينما طالبت القوى الأوروبية الأخرى بمناطق أصغر كانت مهمة بالنسبة لها، مثل الكونغو.

وفي عام ١٨٧٩م؛ نشر بول بروكا مقالاً يحث علماء الأنثروبولوجيا على البدء في دراسة الأجناس المعاصرة، وهي الدراسة التي أدت إلى إرسال العديد من المستكشفين إلى آسيا وإفريقيا. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا متخصصين في الأنثروبولوجيا؛ فإنهم جمعوا الكثير من المعلومات، وبخاصة المعتقدات والممارسات الثقافية لمختلف المجتمعات الإفريقية.

وللبحوث الأنثروبولوجية في إفريقيا تاريخ طويل وحافل، فقد كان للعديد من الدراسات الأنثروبولوجية في الحقبة الاستعمارية المبكرة تأثير في إنشاء مفاهيم الاختلاف العنصري البيولوجي والمادي بين الأفارقة والأوروبيين، وكذلك بين الأفارقة أنفسهم. سيليجمان ١٩٦٦م، على سبيل المثال، دافع عن الفصل العنصري بين شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء. كما تأثر علماء الأنثروبولوجيا الفرنسيون والألمان بدور العلم في إنشاء إمبراطورياتهم، وقدّموا أفكاراً عن الاختلافات العرقية[٢].

١- الأنثروبولوجيا البرتغالية:

تم توظيف علماء الأنثروبولوجيا الاستعمارية البرتغالية لإجراء البحوث، التي قاموا بها في الغالب في موزمبيق وأنغولا لأسباب عمالية واقتصادية وسياسية، وقد تم السعي وراء «المعرفة الاستعمارية» من قِبَل مؤسسات أعدت الإداريين الاستعماريين وموظفي الخدمة المدنية؛ وتم الترويج لها

(١) Anthropology and Colonialism Diane Lewis Current Anthropology, Vol. 14, No. 5 (Dec., 1973), pp.581-602.

(٢) Mahoney, Dillon (2016) Anthropology of Africa, oxford Bibliographies. https://www.academia.edu/30636259/Anthropology_of_Africa

من قِبَل SGL في عام ١٨٨٣م، ولكنها بدأت في الواقع في عام ١٩٠٦م، وأصبحت لاحقاً مؤسسة جامعية في عام ١٩٦١م. وأدت الأنثروبولوجيا البرتغالية إلى التمييز بين الأنثروبولوجيا الفيزيائية والأنثروبولوجيا الثقافية، واهتمت بمسألة العرق، وأجروا بعض التحقيقات حول هذا الموضوع. وعلى الرغم من أنهم لم يُجروا أي عمل ميداني فعلياً؛ فإنهم بدؤوا في إجراء بحث حول العرق، والذي سُمي لاحقاً بـ«الأنثروبولوجيا الفيزيائية».

٢- الأنثروبولوجيا الفرنسية:

أدرك الفرنسيون أن استعمار إفريقيا يتطلب فهماً أعمق للقبائل الإفريقية، ولذلك سعى الموظفون الاستعماريون، ومعظمهم غير مدربين في الدراسات الإثنوغرافية، إلى فهم محيطهم بنمط جديد من التفكير يركز على الهوية والاختلاف، وأجرى بعض الجنود والإداريين الذين تم توظيفهم كعلماء إثنولوجيين أبحاثاً حول السكان الأصليين الأفارقة، في محاولة لإصلاح تقنيات الحكم الاستعماري. ينظر المستعمرون الفرنسيون إلى الأفارقة على أنهم أشخاص يمكن أن يتقدموا عندما يتبعون مساراً معيناً، فهم يحتاجون فقط إلى الرعاية المناسبة لتكييف البرامج المختلفة للتدخلات الغربية للمساعدة في تنمية إفريقيا.

وانطلقت الأنثربولوجيا الميدانية الفرنسية في إفريقيا من مبادرة بعض الحكام الذين رغبوا في معرفة الشعوب الخاضعة لهم، مثل الحاكم «كلوزل» حاكم إفريقيا الغربية، أنشأ هذا الحاكم في عام ١٩١٥م لجنة الدراسات التاريخية والعلمية لإفريقيا الغربية الفرنسية، كما طلب من العلماء إمداده بمعلومات مفصلة عن نظام القضاء في السودان الغربي، بهدف إحلال القانون والإدارة المدنية مكانها[١].

٣- الأنثروبولوجيا البريطانية:

سيطرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية على دراسة إفريقيا وشعوبها المتنوعة، كانت قضايا الدين والسياسة موضوعات مركزية لعلماء الأنثروبولوجيا الاستعمارية الأوائل. قررت بريطانيا تدريب معظم موظفيها الذين يعملون في المستعمرات الإفريقية على منهجية علم الأنثروبولوجيا للقيام ببعض دراسات الأنثربولوجيا، ظناً منهم بأن ذلك سوف يفيد في التحكم بالجماعات والمجتمعات التي يحكمونها ويسيطرون عليها.

ولجأ البريطانيون عند محاولتهم العنيفة لإخضاع «النوير» (قبائل في جنوب السودان) إلى العالِم إيفانز بريتشارد، الذي ألّف كتاباً سياسياً عن النوير ليساعد البريطانيين في السيطرة عليهم، حيث وجد إيفانز بريتشارد ما أسماه «الفوضى المنظمة» بين مجموعات النوير، وهي حقيقة طورها لاحقاً إلى نظريته عن نظام النسب المجزأ للتنظيم السياسي. واستكشف النظم السياسية بشكل أكبر من خلال عمله على أنواك السودان Anuak (قبائل في جنوب شرق جنوب السودان).

كما أنتج علماء الأنثروبولوجيا في

(١) لكلرك، جيرار (١٩٨٢)، ترجمة جورج كتورة، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ط١، كتاب الفكر العربي، بيروت: معهد الإنماء العربي، ص٤١.

العصر الاستعماري أيضاً عدداً من الأعمال حول التغيير الاجتماعي في إفريقيا، وظهر تساؤل أكبر حول ما إذا كان الأفارقة بحاجة إلى أي شخص يتحدث نيابةً عنهم[١].

يمكن لعالِم الأنثروبولوجيا جمع معلومات حول المعتقدات والممارسات الثقافية للأفارقة، وفي هذا الإطار وضع علماء الأنثروبولوجيا بعضاً من المفاهيم الأنثروبولوجية، مثل «القبيلة»، «الأَصْليّة»، «البدائية»، «الوحشية» «البربرية»، التي من خلالها حَرَمَت المستعمراتُ المواطنين الأفارقة من فرصة الافتخار بعِرقهم وإنجازاتهم، وقتلت هذه المصطلحات كبرياء وثقافة الأفارقة، بل وصل الأمر إلى جدال بعض العلماء، مثل ريتشارد بيرتون، بأن الأفارقة توقفوا عن النمو!

كان الدور الذي لعبته الأنثروبولوجيا خلال حقبة الاستعمار مهماً للغاية لدى الدول الاستعمارية، لأنه أدى إلى اختزال الأفارقة في كائنات للفضول والاستفسار، مما أدى إلى إنشاء أنثروبولوجيا في إفريقيا لم يكن لها تاريخ قبل الاستعمار، وخلال فترة الاستعمار أدت الأنثروبولوجيا إلى فَقْد الأفارقة لهويتهم.

كان من الشائع لعلماء الأنثروبولوجيا أن يطلقوا على الأفارقة «العرق الزنجي»؛ لأنهم جادلوا بأن سماتهم الجسدية والعقلية تمنع الأفارقة من الابتكار والاختراع.

وقد أعطت الفلسفة التاريخية الألمانية الأنثروبولوجيا الاستعمارية مفاهيم «التفوق العنصري»، وكان هذا تقليداً يرتبط به كل من علمَي التاريخ والأنثروبولوجيا، فقد جادل هيردر (فيلسوف ألماني، ت.١٨٠٣م) أنه على الرغم من وجود أنواع مختلفة من الأجناس البشرية؛ فإن سماتها الجسدية والعقلية مصبوبة لتتكيف مع بيئتها الجغرافية التي جعلت بعض الأجناس أعلى من غيرها. وهذا يفسّر سبب رؤيته للمكانة بين البشر من الأعراق الأخرى باستثناء أوروبا. وقد أطلق كولينجوود (فيلسوف بريطاني، ت.١٩٤٣م) على هيردر لقب «والد الأنثروبولوجيا»، لأنه من خلال أيديولوجيته كان قادراً على التمييز بين الأنواع المادية المختلفة للبشر، والأخلاق وثقافاتهم.

استخدم علماء الأنثروبولوجيين هذه الأيديولوجية لفهم الثقافة والسمات الجسدية للأعراق المختلفة حول العالم، واستفادت الأنثروبولوجيا البريطانية من هذه التقسيمات العرقية، واقترضت جوانب من علم الاجتماع والفلسفة التاريخية الألمانية (هيردر) والماركسية، واستخدمت «الأنثروبولوجيا العنصرية» كمفهوم رئيسي، ولهذا السبب رفض الأفريقيون الأنثروبولوجيا عند الاستقلال، وما زالوا يواصلون مقاومة الدراسات الأنثروبولوجيا التي يتم إعدادها من خلال علماء الأنثروبولوجيين الأجانب.

رابعاً: تأثير علم الأنثروبولوجيا في استعمار إفريقيا:

١- نظرية Volkekunde أو نظرية الأعراق:

«نظرية الأعراق» volkekunde هي نظرية أنثروبولوجية ساعدت في

(١) Mahoney, Dillon (2016), op. cit. https://www.academia.edu/30636259/Anthropology_of_Africa

الحفاظ على الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وقدّمت التبرير الأخلاقي للإبادة الجماعيـــة في رواندا، وعلى الرغم من أن معظم علماء الأنثروبولوجيا الآن يرفضون بشـــدة مثل هذه النظريات؛ فإن بعضها لا يزال يســـتخدم من قضاياها في دراسات الأنثروبولوجيـــا الحديثة، بـــل حتى الآن يتـــم وضع تعريـــف العرق فـــي قواميس وموســـوعات الأنثروبولوجيـــا التـــي يتم تحديثها باســـتمرار، والجدير بالذكر هنا أن أول استعمال لمفهوم «الأعراق» كان في المؤتمر العالمي الأول للأعراق الذي عُقد في لندن عام ١٩١١م، وســـاهم فيه بعض العلماء الأنثروبولوجييـــن، ومنهم بواس[١] (فرانز بواس، ت.١٩٤٢م).

يتميز تاريخ الدراسة الأنثروبولوجية في جنوب إفريقيا بوجود مدرستين متميزتين:

- **المدرسة الوظيفية البريطانية:** التي تأسست مع تعيين رادكليف براون في عام ١٩٢١م كرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية في جامعة كيب تاون.

- ومدرســـة علم الأعراق الأفريقانية: التـــي تأسســـت في ١٩٢٦م، فـــي جامعة ستيلينبوش على يد فيرنر إيزلين.

تأثرت الإثنولوجيا الأفريكانية، المعروفة باســـم «فولكيكونـــدي» volkekunde، بالدراســـات اللغوية الإفريقية للمدرســـة اللغوية الألمانيـــة لـ«كارل مينهوف»، وعلى النقيـــض مـــن «الوظيفيـــة» البريطانية؛ استندت إلى «التصنيف» بدلاً من «ملاحظة المشاركين». وحتى الأربعينيات من القرن الماضي كانت هناك اتصالات متفرقة بين العلماء الذين ينتمون إلى المدرستين.

وأدى انتصار الحزب الوطني المحافظ فـــي جنوب إفريقيا إلى إدخال سياســـات «الفصل العنصري» في عام ١٩٤٨م، وأثناء تنفيذ مثل هذه الممارسات المقيتة للفصل العنصـــري تـــم إجبار العديد مـــن علماء الأنثروبولوجيا الناطقين باللغة الإنجليزية على النفي، وبالتالـــي تقويض الاتجاهات «الوظيفية» في جنوب إفريقيا.

وفقاً لنظريـــة فولكيكوندي، المعروفة أيضاً باســـم «نظرية العرق»، كان مجتمع جنـــوب إفريقيا عبارة عـــن مجموعة من الكيانـــات العرقية التـــي لا يمكن التوفيق بينهـــا، وأثّر عـــدم التوافق بيـــن أعضاء المجموعات الاجتماعية المختلفة- والذي كان أحد مبـــادئ فولكيكوندي- أيضاً على الممارســـات الإثنوغرافيـــة، حيث أجرى «إيزلين» عالـــم الأنثروبولوجيا واللغويات الجنوب إفريقي وزملاؤه في فولكيكوندي عملاً ميدانيـــاً قصير الأجل، حيث جمعوا القطـــع الأثرية، وحصلـــوا على النصوص من خلال الإملاء من كبار الســـن تمشـــياً مع مبـــادئ الفصل بين الأعراق والأهداف التصنيفية لعلـــم فولكيكوندي. كما تجنّب الفولكيكونديـــج الانخـــراط فـــي الحياة الواقعية مع المتحدثين الأحياء؛ في تناقضٍ واضح مع طريقة مالينوفســـكي لملاحظة المشاركين التي يتبعها علماء الإثنوغرافيا الوظيفيون البنيويون.

(١) لكلرك، جيرار (١٩٨٢)، ترجمة جورج كتورة، الأنثروبولوجيا والاستعمار، مرجع سابق، ص٧٧.

وفي عام ١٩٧٥م؛ تم إنشاء قسم الإثنولوجيا لتوفير المعرفة الأنثروبولوجية لقوات الدفاع في جنوب إفريقيا SADF لقمع التمرد والسيطرة عليهم، وتمت ترجمة المعرفة الأكاديمية إلى معرفة عملية لصالح الأفراد العسكريين في الميدان، حيث تم توزيع كتيبات إثنوغرافية مبسطة مشبعة بنصائح عنصرية[١].

ومع نهاية الفصل العنصري في عام ١٩٩١م، وبعد انتخابات عام ١٩٩٤م، شهدت الأنثروبولوجيا في جنوب إفريقيا تغييراً في النموذج، أدى إلى تحولات في المناهج الدراسية وتعديل علاقات القوة في الجامعات، وانخفضت أقسام فولكيكوندي من حيث العدد والتأثير، لأن معظم علماء الأنثروبولوجيا الشباب رفضوا هذه النظرية.

٢- دولة رواندا وعلاقة الأنثروبولوجيا بالإبادة الجماعية:

إن الأسئلة المتعلقة بمكانة علماء الأنثروبولوجيا تجاه الإبادة الجماعية في رواندا هي: ما هي العلاقة بين النظريات الأنثروبولوجية والإبادة الجماعية في رواندا؟ ولماذا لم يتقدم علماء الأنثروبولوجيا للمساهمة في تجنّب الإبادة الجماعية في رواندا؟

وهي أسئلة توضح مدى ارتباط علم الأنثربولوجيا بالإبادة الجماعية في دولة رواندا. ويرى كليفورد غيرتز في عدم قدرة علماء الأنثروبولوجيا على الانخراط في الأحداث الدرامية أن علماء الأنثروبولوجيين يصلون دائماً مبكراً جدّاً أو متأخراً جدّاً.

وتُعتبر الإبادة الجماعية في رواندا، التي خلّفت ما بين (٨٠٠٠٠٠ – مليون) قتيل من الروانديين في عام ١٩٩٤م، مثالاً على الرعب الناجم عن ترجمة النظريات الأنثروبولوجية حول العرق إلى الواقع، حيث إنها افترضت أن السمات الجسدية المحددة المقترنة بالدور الاجتماعي المتفوق للتوتسي على الهوتو قد تم تفسيرها من خلال حقيقة أن العرق الأول جاء من حضارة قوقازية رعوية متفوقة، بينما كان الآخرون مزارعين أصليين.

بدأ الاستعمار البلجيكي لرواندا عام ١٩١٢م، ومنحته عصبة الأمم عام ١٩١٩م الشرعية لاستمرار السيطرة على دولة رواندا، واشترك المستوطنون البلجيكيون والسلطات الاستعمارية في تنمية الاعتقاد بالتفوق العنصري للتوتسي على الهوتو. وفي عام ١٩٣٣م ذهب علماء الأنثروبولوجيا إلى رواندا لتصنيف السكان حسب النمط الظاهري وفقاً للمبادئ التصنيفية لعلم الفرينولوجيا Phrenology (علم يبحث العلاقة بين شخصية الإنسان وشكل جمجمته).

تبنّت القوة الاستعمارية البلجيكية أسلوب حكم غير مباشر من شأنه تمكين التوتسي على الهوتو، وأدخلت في عام ١٩٣٦م المحاكم الأصلية التي يرأسها زعماء التوتسي. وبين عامي ١٩٣٣م و١٩٩٧م تم تسجيل الهوية العرقية

(١) Livia Holden, op. cit.p11 .

للمواطنين الروانديين على بطاقات الهوية؛ التي أصبحت عام ١٩٩٤م مفيدة في تحديد وقتل أعضاء الجماعة المعارضة. ومن ثم أضاف جمع البيانات من قِبَل علماء الأنثروبولوجيا والمبشرين الإثنولوجيين بُعداً مادياً وقابلاً للقياس لمفهوم العرق، والذي دخل المجال الاجتماعي والسياسي، ووجد تعبيراً في الحكم، وفي نهاية المطاف حدوث الإبادة الجماعية.

وعلى الرغم من أن الصراع بين التوتسي والهوتو كان قائماً قبل الاستعمار؛ فإن التصنيف العرقي للتوتسي على أنهم ينحدرون من القوقاز، ومن المفترض أنهم أقرب إلى الأوروبيين، كان عاملاً رئيسياً في مزاعم التوتسي. كما أعطى المسؤولون الألمان والبلجيكيون المواطنين التوتسي فرصاً للتعليم وامتيازات سياسية وإدارية مهمة، وتم استبعاد المواطنين الهوتو من التعليم العالي ومن المناصب الإدارية.

وبخلاف ذلك؛ تم خلق الظروف للتوتر الذي لا يمكن إزالته بين المجموعتين. في النهاية؛ تم تقديم مفهوم الأصول الإقليمية المختلفة للهوتو والتوتسي، والذي أقرّه أيضاً كبار علماء الأنثروبولوجيا مثل تشارلز سيليجمان (١٩٣٠م)، أساساً علمياً إضافياً للحركة القومية للهوتو الساعية إلى العودة إلى الظروف الأصلية للنقاء العرقي من خلال تنظيم القتل الجماعي للغزاة التوتسي[١].

(١) Ibid. p.13.

خامساً: دراسات علم الأنثروبولوجيا في الجامعات.. هل تخلصت بالفعل من رواسب الدراسات الاستعمارية؟

شكّل موضوع استخدام المعرفة الأنثروبولوجيا في ترسيخ الاستعمار قضية كبيرة جداً في نهايات الستينيات من القرن الماضي، الأمر الذي جعل الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية تشكل لجنة عام ١٩٦٨م لبحث قضة المسؤولية الأخلاقية تجاه المجتمع أو الجماعة التي يتم دراستها، وكان السؤال المطروح في ذلك الوقت هو: **كيف ولمصلحة من تُستخدم البحوث الأنثروبولوجيا؟** وانتهت المناقشات بإصدار ما عُرف باسم «وثيقة الأخلاقيات»، **وتم تحديد الآتي:**

- علاقة الأنثروبولوجيين ومسؤولياتهم تجاه الجماعات التي يدرسونها.
- علاقة الأنثروبولوجيين بالحكومات والدول المستعمرة وبين حكوماتهم.
- علاقة الأنثروبولوجيين المهنية تجاه زملائهم وطلابهم.

ولم يقتصر الأمر عند إصدار هذا الميثاق الأخلاقي، بل نشرت دعوة لتصحيح الأخطاء التي وقع فيها بعض العلماء الأنثربولوجيين، من خلال ظهور الاتجاه النقدي الذي كان من المفترض أن يقوم بنقد وتصحيح الدراسات والأدبيات الإثنوجرافية والأنثروبولوجيا التي تم استخدامها في ترسيخ واستقرار الاستعمار، ولكن لم ينجح هذا الاتجاه بشكلٍ كبير في تصحيح ونقد هذه الدراسات، بل

عمل على ظهور فرضيات ودراسات جديدة تأخذ شكلاً منهجياً وعلمياً جديداً يبتعد عن الاتهامات التي سبق أن وُجِّهت له من قبل.

وبناءً عليه؛ نجد أن تدريس علم الأنثروبولوجيا في الجامعات المختلفة لم يختلف كثيراً عن بدايات تطور العلم، فلا يزال يتم دراسة والاعتماد على الدراسات والأدبيات والبحوث التي تمّت بناءً على توجهات استعمارية، كما أنه لم يتم توجيه إشارة إلى أن هذه الدراسات تم توجيه النقد إليها، وأنها تُعتبر دراسات غير دقيقة، وأن بها الكثير من المعلومات والبيانات غير الصحيحة.

المنطلقات التي انطلقت منها العلوم الاجتماعية الحديثة هي منطلقات استعمارية تعمق المركزية الأوروبية ولا يمكنها الفكاك منها، يُعبّر المفكر الاجتماعيّ الفرنسي إيمانويل فالرشتاين Wallerstein Immanuel عن طبيعة العلوم الاجتماعية الحديثة، قائلاً: «كانت العلوم الاجتماعيّة مركزيّة أوروبيّة طيلة تاريخها المؤسّسيّ، أي منذ تأسيس أقسام خاصّة في المعاهد الجامعية لتدريس العلوم الاجتماعية، ولا عجب في ذلك على الإطلاق، فالعلوم الاجتماعية ما هي إلا نتاج النسق العالمي الحديث، والنزعة المركزية الأوروبية هي من العناصر المكوِّنة (الجيو ثقافة) للعالم الحديث. يُضاف إلى ذلك أن العلم الاجتماعي، بوصفه بُنية مؤسّسية، نشأ أساساً في أوروبا (نستخدم كلمة «أوروبا» هنا كتعبير ثقافي، لا كمصطلح جغرافي بحت)[1].

والجدير بالذكر هنا، وبالرغم من رفض علماء الأنثروبولوجيين لبعض المصطلحات والتعريفات وبعض الكلمات التي تم استخدامها للتعبير عن العنصرية، والتقليل من شأن المجتمعات، وتم استخدامها لترسيخ الاستعمار، على سبيل المثال وليس الحصر: (العرق- البُدائية- الزنوج- القبيلة- الجماعة العرقية- الجماعة الإثنية- الشعوب الأصلية... وغيرها)، فإن هذه المصطلحات لا يزال يتم تدريسها في الجامعات، وبل يتم وضعها في القواميس والموسوعات ذات النشر الجديد والحديث ودون أي إشارة إلى: أن مثل هذه المصطلحات لم تكن دقيقة، وثبت عدم صحتها في وصف المجتمعات والجماعات البشرية المختلفة، بل كانت من أسباب قوع حروب أهلية وتشرّد الملايين من الشعوب الإفريقية في فترة من الزمن ليست بالقصيرة.

استخدم علماء الأنثروبولوجيا وغيرهم من الباحثين إجراءات «موضوعية» ظاهرياً لتعزيز أشكال مختلفة من العنصرية، من خلال وضع البشر على مقياس متدرج للحضارة، وتقديم نظريات مشحونة لـ«التطور الثقافي». تم تقديم هذه البرامج على أنها نتائج علمية، واستُخدمت لدعم الأجندات العنصرية. كان الضرر الناجم عن هذا النوع من العمل واسع النطاق

(١) إيمانويل فالرشتاين، نهاية العالم كما نعرفه: نحو علم اجتماعي للقرن الحادي والعشرين، ت: د. فايز الصياغ، هيئة البحرية للثقافة والآثار، المنامة، ط، ٢٠١٧، ص٣١.

ومهمّاً، مما أدى إلى تعزيز عدم المساواة العرقية، ودعم الحجج بشأن دونية «الآخرين» غير الأوروبيين.

ولا يزال يتم الاعتماد على مثل هذه الدراسات في تدريس علم الأنثروبولوجيا بالجامعات المختلفة، على سبيل المثال وليس الحصر: (متحف الإنسان في فرنسا)، تم إنشاء هذا المتحف على يد عالم الأنثروبولوجي «بول ريفيه» في عام ١٩٣٧م، وهو يعتبر امتداداً لمتحف الأعراق في تروكاديرو، الذي تم إنشاؤه عام ١٨٧٨م، يضم هذا المتحف عدداً كبيراً جداً من الجماجم البشرية لثوار الجزائر وغيرهم من ثوار الدول التي كانت تحت الاستعمار الفرنسي، حيث تم تجميع هذه الجماجم من قصور الملوك والقادة الفرنسيين، والتي كانت تُستخدم لتزين قصورهم ودلالة لانتصاراتهم على هؤلاء الثوار، كان هدف المتحف هو دراسة تطور الكائن البشري، ومحاولة إثبات أن العنصر الأوروبي هو أصل البشرية.

والجدير بالذكر هنا: أن هذا المتحف يخضع في الوقت الحالي لإشراف عدد من وزارات الحكومة الفرنسية والمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي CNRS، وبالتالي يتم استخدام هذا المتحف لإجراء الدراسات العلمية الحديثة، والاعتماد على الأطر النظرية والدراسات التي تم إعدادها أثناء فترة الاستعمار الفرنسي، والتي كان من المفترض رفضها من قِبَل علماء الأنثروبولوجيا، ولكن لم يحدث ذلك حتى الآن. (انظر: صورة رقم ١).

صورة رقم (١):

مجموعة من الجماجم في متحف الإنسان

وعليه؛ فإذا طرحنا هذا التساؤل: هل تخلصت الأنثروبولوجيا في الجامعات من النزعة الاستعمارية؟

تكون الإجابة: لا؛ لم تتخلص دراسات علم الأنثروبولوجيا في الجامعات من التوجه الاستعماري بشكل نهائي، فلا يزال هناك الكثير من الرواسب الاستعمارية في الدراسات والأدبيات والأطر النظرية التي يتم الاعتماد عليها من قِبَل الباحثين الأنثروبولوجيين، على الرغم من محاولات البعض رفض هذه الدراسات، والسعي لعمل وإجراء دراسات ميدانية جديدة تقوم على أطر نظرية ومنهجية بهدف تنمية المجتمعات بعيداً عن فكرة الاستعمار والسيطرة، وخاصةً أن من يقوم بهذه الدراسات هم أفراد من المجتمع نفسه، ومن ثَمّ تتحقق الشفافية والموضوعية ■